

التجديد في علم التوحيد

عند وحيد الدين خان

الدكتور صالح نعمان

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

تمهيد:

لقد دعا وحيد الدين خان إلى تجديد علم الكلام، كما دعا إلى ذلك محمد عبده ومحمد إقبال، ثم مجموعة من المفكرين المسلمين المعاصرين، أمثال عبد المجيد النجار وغيرهم. ومنهم من جسّد هذه الدعوة في كتابات دون أن يدعو إليها صراحة، مثلما نجد في كتاب "عقيدة المؤمن" للشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- وكتاب "الإيمان والحياة" للدكتور الداعية يوسف القرضاوي، وكتاب "الإيمان وأثره في حياة الفرد والمجتمع" للدكتور حسن الترابي.

وهؤلاء العلماء والمفكرون يتحلّى في كتاباتهم هذا الاتجاه التقديري في عرض العقيدة الإسلامية، وهو منهج يعتمد على معالجة العقيدة الإسلامية من منظور إسلامي وضع، باستخدام الأدلة العقلية الصريحة، لتعضد الأدلة النقلية، مضافاً إليها أثر العقيدة في حياة الأفراد والمجتمعات، ونتائج ذلك في الحياة الآخرة.

وهذا الأخير (أثر العقيدة) هو وجه التجديد في هذه الكتابات، بعدما ابتعدت الكتب العقائدية الكلامية القديمة عن واقع الناس، وأصبحت عبارة عن مجالات نظرية صورية، وضرب من الترف الفكري، وهذا المنهج موجه بالدرجة الأولى إلى المسلمين بكل مستوياتهم. بينما تبني مفكرنا وحيد الدين خان منهجاً تقريرياً تقديرياً مبنياً على منجزات العلم الحديث والأدلة الطبيعية، أو الشواهد العلمية الكونية،

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
نماشيا مع قوله تعالى: ﴿سُورِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّه
الْحَقُّ﴾¹. ويهدف إلى بيان تهاافت الفكر المادي من قضية الإيمان، وأن العلم يقوي
ويدعم الإيمان. وهو منهج موجه إلى منكري الدين، والذين يرون عدم أحقية
الإسلام في أن يكون دينا عاما خاتما للأديان. كما يطلبه ويستفيد منه كثير من
المسلمين، الراسخي العقيدة من باب «ليطمئن قلبي»، حتى يجدوا جوابا علميا مقنعا
للكثير من التساؤلات، ولا يعترهم شعور بالنقص في صحة عقيدتهم في هذا العصر
عصر العلم والتفكير العلمي القائم على المشاهدة والتجربة².

ويقصد بتجديد علم الكلام، استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن
الذهن الجديد والعقلية الجديدة، وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب
الاستدلال الملائمة للعقل الجديد³. فتجديد علم الكلام عنده يقوم على ركيزتين
أساسيتين هما:

أولاً: أن التجديد الذي يعنيه ليس تجديدا في القضايا والمسائل، بل في المنهج
والأسلوب؛ ذلك أن المسائل والقضايا العقدية مصدرها الوحي، وليس العقل
البشري، الذي تقصر مهمته في فهمها واستيعابها، وأما المنهج والأسلوب فهما
يتغيران ويتطوران بتغير وتطور الزمان والمكان ومستويات إدراك الناس.

1 - سورة فصلت، الآية 53.

2 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ترجمة ظفر الإسلام خان، المختار الإسلامي، القاهرة،
ط4، 1978. ص4.

3 - قضية البعث الإسلامي (الشروط والمنهج) ترجمة محسن عثمان الندوي، دار الصحوة للنشرة
والتوزيع، القاهرة، ط1، 1405هـ/1984م.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
ولهذا لم يشذَّ وحيد الدين بخان عن أقرانه من العلماء الأوائل والمحدثين
والمعاصرين في هذا الأمر، حيث نجد ما رفضه وذمه وانتقده المفكرون المسلمون
الأوائل من علم الكلام، لم يكن أصل القضايا المطروحة على ساحة البحث في مجال
العقيدة. ولكنه كان الغلو والمنهج الذي يتعد أحيانا عن سلاسة النص الإسلامي
(القرآن والسنة) من جهة، كما يبالغ في التشقيق والافتراض من جهة أخرى¹.

ثانياً: العقل الجديد، ويعني العقل العلمي أو العقلية العلمية، التي تهماها
الحقائق، وتمثل في تقديم علم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة، لا على أساس
التخمينات أو القياسات المنطقية.

فالثورة العلمية التي حدثت في العصر الحديث تقوم على دراسة الحقائق
الطبيعية، وكل شيء مخترع في هذا العصر إنما يتماشى مع الحقائق الطبيعية. فأصبح
من الطبيعي أن يولي الإنسان اليوم أهمية أكبر للأمر الذي يثبت على أساس الحقائق
الطبيعية، فهو لا يصنع يقينه وطريقه إلا على أمور تثبتها الحقائق فقد تغير أسلوب
التحليل وتغير منهج التفكير في هذا العصر.

لهذا كان من الضروري تجديد علم العقيدة أو بالأحرى تجديد منهج علم
العقيدة حتى نوصل حقائق الدين الإسلامي إلى عقول الناس وقلوبهم.

وبناء على ما تقدم، فما هي مبررات ودواعي هذه الدعوة؟ أو ما هي أسباب
تجديد منهج علم الكلام؟ هل مناهج المتكلمين القديمة لم تعد صالحة اليوم، لأن هذا
العصر له متطلبات ومصطلحات فكرية وعلمية تقتضي منهجا جديدا وخطابا
مفهوما للإنسان المعاصر، فتجاوز تلك المناهج؟ وما هي أسس ودعائم هذا المنهج

1 - العجمي (أبو الوليد)، الفقهاء، وبحوث العقيدة. دار الهداية، القاهرة، بدون تاريخ. ص 50.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان

الجديد؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: مبررات تجديد علم التوحيد

إن دعوة مفكرنا إلى تجاوز صور الاستدلال القديمة، وإنشاء منهج جديد يقوم على أسس المنهج القرآني، ويلائم العقلية الجديدة، هذه الدعوة لها دواع وأسباب نجتمعها في سببين أساسيين، هما:

أ- عدم ملاءمة كثير من طرق الاستدلال القديمة للواقع الذي نعيشه اليوم، ولمنطق العصر، بل عدم ملاءمتها حتى مع الواقع الذي كان يحياه المسلمون في كل المستويات في تلك العصور. وذلك لأنها كانت تُبنى على نمط الاستدلال الفلسفي، أي تقوم على التولدات والإلزامات، دون أن تغذي القلب أو تطمئن العقل. ولأن معظم هذه الطرق إما أنها ليست برهانية، لاعتمادها على مقدمات قابلة للمناقشة، أو أثبت العلم الحديث بطلانها، مثل فكرة الجوهر الفرد، والجزء الذي لا يتجزأ، التي أثبت بطلانها تفجير الذرة.

إن علم الكلام القديم تجاوز منهج القرآن الكريم السهل الواضح الملائم لكل المستويات، وانحرف عنه، ووضع بنية الاستدلال الإسلامي على أساس المنطق القياسي، فعدّ مرادفا لعلم المنطق، بينما وضع القرآن الكريم بنية الاستدلال الإسلامي على أساس الشواهد الطبيعية¹ (الأنفس والآفاق).

ب- اختلاف العقلية الجديدة عن العقلية القديمة، التي تهمها الحقائق²، إذ بناءً على تطور العلم واطراده، وما أحدثه من ثورة فكرية في التاريخ الإنساني، تهم

1 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص105.

2 - المصدر السابق، 102.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
العقلية العلمية بتقديم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة، لا على أساس
التخمينات أو القياسات المنطقية التجريدية الصورية. وعليه أصبح الإنسان المعاصر،
لا يقبل فكرًا إلا إذا عرف أنه يطابق الحقائق المعلومة، وينظر إلى الطرق الاستدلالية
القديمة على أنها طرق باطلة، لا أساس لها¹. وطالب بإحضار الحقائق الدينية -إذا
كانت حقائق صادقة- للمقاييس العلمية الحديثة للاستدلال، وإلاّ جاز للعقل
الحديث أن يشك في صحة حقائق الدين.

وظن منكرو الدين أن العلم قد حل كل شيء، وأن عصر الإيمان قد ولى،
فلا ضرورة في نظرهم لفرضية "الإله" لتفسير الكون، لأنهم يستطيعون تفسير الكون
بكل مراحلها في ضوء الاكتشافات الحديثة دون اللجوء إلى الإله². ومن ثم كان
موقف علماء الدين في نظرهم أشبه برجل يكتب "صكًا" لا رصيد له في البنك، فهم
قد صاغوا عبارات لا تكمن وراءها حقائق³.

ولكن حقيقة الأمر أن الثورة العلمية المعاصرة في كل المجالات تخدم الدين
الإسلامي، وتدعم أصوله وقضاياه، إذ لا تنفك تكشف كل يوم عن جديد من
القوانين والحقائق التي تؤكد وجود الحقيقة الكبرى "الله". وأن دعاوى معارضي
الدين باطلة، لأنها تفتقد الدليل⁴، فالطبيعة لا تفسر الكون، وإنما هي نفسها في

1 - وعيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص 03

2 - المصدر السابق، ص 50-51.

(3) - المصدر السابق، ص 6.

4- TREMNTANT.C. Sciences de l'Univ et problemes
méthaphisiques. Ed. du seuil, Paris, 1976.

التحديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
حاجة إلى تفسير، كما يقول أحد العلماء المسيحيين، لأنها مجرد حقيقة من حقائق
الكون، وليست تفسيراً له¹.

إن الله - كما يقول مفكرنا - يجري إرادته في الكون بواسطة هذه القوانين
التي اكتشفت علومنا الحديثة بعض أجزائها فقط، حتى الآن². ولا يمكن اعتبار تلك
القوانين والاكتشافات بديلاً للإله كما يزعم معارضو الدين.

وبناء على ذلك، يتجلى لنا الفرق بين علم الكلام القديم وعلم الكلام
الجديد، وكما قال وحيد الدين خان، هنا تبدأ الفجوة بين علم الكلام القديم وعلم
الكلام الجديد، وتصل إلى حد القطيعة³.

وتبرز كذلك ضرورة تغيير المناهج الكلامية لإشباع رغبات متجددة في
اليقين تريد أن تؤسس موقفها على الأرض من المعرفة الجديدة التي اخترقت الآفاق،
فتدفع الشكوك وتثبت الإيمان وترقيه، وتطمئن القلوب. ومن ثم لمواجهة تحدي
العصر الحديث، يجب أن نبنى المنهج الجديد في عصرنا هذا على نمط الاستدلال
الطبيعي ونبرهن الحقائق بالشهادات الواقعية⁴.

المبحث الثاني: علم الكلام الجديد (مبادئه وتطبيقاته)

إن دعوة وحيد الدين خان إلى تجاوز طرق الاستدلال القديمة واستبدالها بعلم
الكلام الجديد، ما هي في حقيقة الأمر إلا دعوة إلى العودة إلى منهج القرآن الكريم،

1 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص 53.

2 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص 54.

3 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 103.

4 - المصدر نفسه، والإسلام يتحدى، ص 30.

التحديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
والأخذ بمنجزات العلم المعاصرة، وذلك لأن نمط الاستدلال القرآني إنما هو نفس نمط
الاستدلال الجديد، الذي يعبر عنه بالاستدلال بالحقائق الطبيعية¹.

فالتعليم الذي أعطاه الله في كتابه بصورة عامة، جعل الكون بأسره دليلاً
علمياً لتأييده وتأكيد، ويتجلى هذا الأسلوب القرآني في كثير من الآيات، مثل قوله
تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾². وقوله:
﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ
كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾³. وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ
خُلِقَتْ (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ)﴾⁴.

وذلك النمط من الاستدلال تبناه الأنبياء والرسل عليهم السلام. فمثلاً يذكر
لنا القرآن الكريم أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام قومه المشركين إلى التوحيد أقام
الدليل على دعوته بمشاهدة الشمس والقمر والنجوم والكواكب⁵، وعقب الله تعالى

1 - المصدر السابق، ص 104.

2 - سورة فصلت، الآية 53.

3 - سورة الأنبياء، آية 30.

4 - سورة الغاشية، الآيات: 17-20.

5 - انظر سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ يُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
الْمُقِيمِينَ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿فَلَمَّا رَأَى
الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿فَلَمَّا رَأَى
الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُاقَوْمِ إِلَٰهِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الآيات 74-

التحديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان

على حجة إبراهيم قائلا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾¹. فكانت الحجة الإلهية هي الاستدلال من الحقائق المعلومة المشاهدة لهذا الكون، (أي المعلومة في عالم الشهادة).

وبناء على هذا يبدو لنا أن القرآن الكريم والكون كليهما إظهاراً للمشئبة الربانية، وهو إظهار بصورة كلامية في مكان، وإظهار بصورة عملية في مكان آخر² في نظر وحيد الدين خان. فما هي إذن أسس ومبادئ المنهج الذي يقترحه وحيد الدين خان؟

يقوم منهج علم الكلام الجديد عند وحيد الدين خان على ركيزتين أساسيتين، تعدّ الأولى مدخلا للثانية، بالنسبة لمنكري الدين عموماً، وهما:

أ- عرض قضية معارضي الدين ونقدها.

ب- طريقة الاستدلال العلمي، أو مبادئ علم الكلام الجديد.

وقد عرض لهاتين الركيزتين في أربعة كتب له هي: الإسلام يتحدى، الدين في مواجهة العلم، قضية البعث الإسلامي، والإسلام والعصر الحديث.

أ- عرض قضية معارضي الدين ونقدها:

هذه الركيزة أساسية لتحطيم الحواجز التي أقامها الملحدون بين العلم والدين، فلا يمكن دعوتهم إلى الإسلام في هذا العصر والاستدلال على العقائد الإسلامية دون إبطال دعوة معارضي الدين وحججهم، وإثبات حقيقة الإيمان وأحقية الدين الإسلامي.

1 - سورة الأنعام، آية 83

2 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 104.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
وبهذا المنهج يتبع وحيد الدين خان منهج الرسول صلى الله عليه وسلم مع
أصحابه، إذ كان "يفرغهم ثم يملأهم". فكان من الضرورة إفراغ المتشبعين
بالمعتقدات والأفكار المعادية للإسلام من هذه الأفكار، حتى يمكن ملؤها بالعقيدة
الإسلامية.

لهذا عرض قضية معارضي الدين الإسلامي التي قامت عليها المعارضة بكل
أمانة، من واقع وجودها لدى زعمائها. وهي ثلاثة أسس:
الأساس الأول في ميدان الدراسات البيولوجية والطبيعية، والثاني في ميدان
علم النفس، والأساس الثالث في ميدان التاريخ¹.

ثم عمل على نقض ودحض هذه الأسس بالطريقة العلمية²، مستعملاً طرقهم
ومقاييسهم، معتمداً على قاعدة هي: «إذا كان المبدأ هو أن الحقيقة ليست إلا نتاج
المشاهدة والتجربة العلمية، فلن تستقيم قضية معارضي الدين إلا إذا توصلوا
بالمشاهدة والتجربة نفسها إلى أن الدين في حقيقته النهائية باطل»³. وقد اعتمد
معارضو الدين على أربعة معايير ومقاييس للاستدلال العلمي استغلها وحيد الدين
خان في نقد ادعائهم.

1. أن يكون الأمر المراد مشاهدته أو تجربته في متناول أيدينا مباشرة⁴.
2. ألا تكون الدَّعوة قابلة كلياً للمشاهدة، بل يمكن مشاهدة بعض أجزائها،

1 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 35-40.

2 - المصدر السابق، ص 23.

3 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص 10.

4 - المصدر السابق، ص 6.

التحديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
وعلى سبيل المثال، فإن دعوى "الأرض كروية" لا يمكن أن يشاهدها الإنسان في صورتها الكاملة، لأنه يستطيع أن يشاهد أجزاء مختلفة تؤكد حقيقة أن الأرض كروية¹. بواسطة الطيران مثلا، أو من الفضاء.

3. إن الاستدلال يعتبر مقياسا علميا سليما إذا شوهدت بعض جوانب التجربة التي تؤكد وجود حقيقة ما، وذلك بالرغم من عجزنا عن مشاهدة تلك الحقيقة بكامل جوانبها في تلك التجربة². ومثال ذلك الإلكترون في الذرة الذي لا يخضع للملاحظة نظرا لنهاي وجوده في الصغر. ولكن بالرغم من ذلك يعتمد العلماء بأن الإلكترون حقيقة علمية والسر، في ذلك أن له آثارا نشاهدها في صورة تجارب قابلة للتكرار والإعادة. فبالاستناد إلى التجربة غير المباشرة يسلم العلماء بوجود الإلكترون مع أنه في ذاته فرض³.

4. القياس الرابع: هو الاستدلال بـ "القرينة الجائزة"، «فالمشاهدات والتجارب، وإن لم تكن مرتبطة بالقضية المطروحة، بالمعنى العلمي التكنيكي البحث، إلا أنه إذا كانت هناك قرينة جائزة لتأييد تلك القضية، وذلك في حالة عدم وجود نظرية أقوى لتفسير تلك المشاهدات، فإن ذلك الاستدلال بالقرينة الجائزة على القضية المطروحة سيكون مقبولا وسليما»⁴.

فالتطبيق الصحيح لهذه المقاييس التي توصل إليها العقل الحديث توصلنا إلى

1 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص 70.

2 - المصدر السابق، ص 70.

3- TREMNTANT.C. op, cit, pp50-64.

4 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، ص 80.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
نتيجة مهمة، وهي «أن العقل الحديث لا يحصر دائرة العلم في تلك الوقائع التي يمكننا تجربتها مباشرة، وإنما يعتبر أن أية قرينة منطقية تستند إلى تجارب ومشاهدات غير مباشرة، يمكنها أيضا أن تصبح حقيقة علمية بنفس درجة الحقائق العلمية التي يمكن مشاهدتها مباشرة»¹.

وهذا يعني أن الدين في حقيقته يتعلق بميدان يقبل الأدلة العلمية، فهو ليس باطلا. والعقيدة الإسلامية بناء على ذلك حقيقة لا يمكن إنكارها. والإلحاد أصبح مستحيلا.

ب- طريقة الاستدلال العلمي (أو مبادئ علم العقيدة الجديد)

يقوم علم العقيدة الجديد على أربعة مبادئ لا يمكن فهمه إلا بفهمها، والاعتماد عليها، ولا يمكن الاستدلال على العقائد الإسلامية في هذا العصر بدورها. أولا: أن علم الإنسان جزئي محدود بعالم الشهادة.

فالقرآن الكريم بين هذه الحقيقة بتقسيمه الآيات القرآنية إلى قسمين، محكمات ومتشابهات، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾².

أما المحكمات فعرفها الجرجاني بقوله: «المحكم ما أحكم المراد به عن التبديل والتغير، أي التخصيص والتأويل والنسخ»³. فهي تتصل بدنيانا المعلومة ونستطيع

1 - المصدر السابق، ص 15.

2 - سورة آل عمران، آية 7.

3 - الجرجاني (علي بن محمد بن علي)، التعريفات. تحقيق إبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1992م.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان

فهم مدلولاتها، مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾¹. والسعي لفهم مدلولاتها أو مفاهيمها أمر مفيد.

أما التشابهات، فقد عرّفها الجرجاني بقوله: «المتشابه ما خفي بنفس اللفظ ولا يرجح دركه أصلاً، كالمقطعات في أوائل السور»². لأنها تختص بأمور الغيب. وقد بين الله تعالى هذه الأمور بأسلوب رمزي مثل ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾³. وبين أن السعي لتعيين مدلولاتها سيعود بالضرر والخسران على المسلمين. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁴.

وما تنافر وتصادم الفرق الكلامية إلا بسبب خوضها في هذه الآيات، وابتغائها تأويلها إلى درجة الفتنة، مثلما وقع في قضية خلق القرآن. ولهذا نجد الله تبارك وتعالى لا يجيب عن الأسئلة المتعلقة بـ «الأمور الغيبية» كالروح والساعة (يوم القيامة)، وإنما يبطئ همة السائل حتى لا يثير مثل تلك الأسئلة، لأن أجوبتها الحقيقية توجد خارج حدود إدراك الإنسان، فلا يستطيع أن يفهمها⁵.

ص 363.

1 - سورة المائدة، آية 38.

2 - الجرجاني، المرجع السابق، ص 253.

3 - سورة الأعراف، آية 54.

4 - سورة آل عمران، آية 7.

5 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 106.

التحديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
 فمثلا يقول الله جل جلاله عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾¹. ويقول عن الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾².

فهناك حقيقة بشرية أقرها القرآن الكريم، هي "محدودية العلم البشري". لهذا كان ذلك التقسيم القرآني للعلم (لحكم التشابه) يتلاءم مع الطبيعة البشرية، كما يقول الأستاذ وحيد الدين خان³. ويتجلى لنا ذلك من المعطيات العلمية الحديثة، حيث أثبت العلم المعاصر بأن الحقيقة ليست محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، كما بينا سابقا. إذ يعترف الأستاذ ما دير (MANDER) «أن الحقيقة التي نتعرفها مباشرة تسمى الحقائق المحسوسة، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في الحقائق المحسوسة، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال. ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه بالحقائق المستنبطة. والمهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في النسبية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة، وعلى الثانية بالواسطة. والحقيقة دائما هي الحقيقة، سواء عرفناها بالاستنباط أو بالملاحظة»⁴. وهذا الاعتراف يعني أن هذا المبدأ في علم الكلام الجديد يقوم على

1 - سورة الإسراء، آية 17.

2 - سورة الأعراف، آية 187.

3 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 107.

4 - A.E. Monder; dearer thinking. London, p41. نقلا عن "الإسلام يتحدث"، ص 63-64.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
أساس علمي.

ثانياً: الاستدلال على الحقائق بالطرق الطبيعية

فكما ورد في القرآن الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾¹ قد أورد وحيد الدين خان أمثلة توضح هذا المبدأ تتمثل فيما يأتي:

1. الإيمان بوجود الله تعالى

لقد أقام القرآن الكريم أدلة المشاهدة على الدَّعوة إلى الإيمان بالله تعالى الذي خلق هذا الكون، في حين أقام المتكلمون القدامى أدلة قياسية تحت ضغط عليهم الفلسفية فبين القرآن الكريم «أن هذا الكون الواسع الذي ترونه رأي العين ولا تنكرونه، إنما هو في حد ذاته دليل على خالق الكون» ﴿أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾². ففي هذه الآية إشارة إلى حادث كوني يسمى بنظرية الانفجار الكبير (BIN-BANG) في العصر الحديث³، التي يعتبرها العلماء حقيقة ثابتة بفضل البحوث العلمية الكثيرة المتتالية، إذ قال أحد علماء الفلك المعاصرين، وهو الأستاذ تران تيون (TRINH THUAN): «إن كثيراً من الفلكيين يؤمنون اليوم بأن الكون

1 - سورة فصلت، الآية 53.

2 - سورة الأنبياء، آية 30.

3 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 108.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان
خلق من أجل الإنسان، أي أنه كان مبرجاً¹. أي له خالق برجه لمقاصد من بينها
العناية بالإنسان.

وهذه الحقيقة عبر عنها الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد "بدليل العناية" على
وجود الله تعالى، وهو «موافقة جميع الموجودات لوجود الإنسان، وهذه الموافقة هي
ضرورة من قبل قاصد لذلك مريد إذ ليس يمكن أن تكون الموافقة بالاتفاق»².
وهذا يعني نفي الصدفة في خلق الكون، كما تفيد نظرية "الانفجار الكبير"
أن هذا الكون ليس أزلياً إذ هو بدأ في وقت معين لا نعرفه، وإنما نعيش في عالم يزيد
حجماً باستمرار³. فهي دليل على وجود الله بالقوانين الطبيعية، لأن الكرة المادية
الجامدة، لا يمكن أن تتحرك إلى اتجاه الخارج بصفة منتظمة بدون محرك خارجي.
وأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يتبدى بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى من يرجحه
للوجود، وهذا المرجح هو الخالق الإله، كما يقول الأستاذ إدوارد لوتر كسيل، العالم
الأمريكي في علم الحيوان، في كتابه "THE VIDANCE OF GOD"⁽⁴⁾.

1 - PARIS MATCH; "Un débat métaphysique avec l'astronomie trindh-
than. 1989.

2 - أبو الوليد ابن رشد. مناهج الأدلة في عقائد الملة. ترجمة لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق
الجديدة، بيروت، ط1، 1402هـ/1982م. ص 60-61.

3 - AHMED ABDU-ESSALAM : L'Islam et l'Occident devant les
conquêtes de la science concordance au conflit. L'U.N.S.C.O. 27-4-
1984. pp16-17-18.

4 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص74.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان

2. الإيمان باليوم الآخر

من أهم الحقائق التي يدعوننا الإسلام إلى الإيمان بها قضية اليوم الآخر، إذ يخبرنا القرآن الكريم أن هذا العالم ليس بعالم نهائي، بل يعقبه عالم آخر، ولو أنه في الغيب، لكنه حقيقة واقعة. ولتأكيد هذا الخبر يقدم الأدلة بالعلم التجريبي¹، إذ يقول المولى عز وجل: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾². فإذا كان لكل شيء زوج، - كما يقول وحيد الدين خان - الذي يستكمل به نفسه، فلا بد أن يكون لهذه الدنيا زوج، وزج الدنيا هي الآخرة³.

فقد أعلمنا العلم الحديث أن سائر الذرات الكائنة في الخليقة توجد بأشكال أزواج، فهناك جسيمات مضادة للجسيمة، وذرة مضادة لذرة، ومتر مضاد للمتر، وعالم مضاد للعالم. ولكن لا يمكن الإخبار تفصيلاً عن ذلك العالم المضاد بالقوانين المعلومة للطبيعة⁴.

ثالثاً: إبراز القرآن الكريم لجانب من هذا الكون الذي قرره الله لنا ميزانا نحتكم إليه

فالقرآن يدعونا لأن نعبد الله وحده لا شريك له، ويسلم نفسه لخالفه ذليلاً وخاشعاً، ولتأكيد هذه المطالبة لم يستخدم الأدلة الفلسفية، بل استخدم أدلة الطبيعة، إذ تبين لنا أن الأحكام الإلهية لتمثل لنا في الكون من خلال نماذج متعددة، منها

1 - المصدر السابق، الباب الخامس، ص 110-194.

2 - سورة الذاريات، آية 49.

3 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 110.

4 - المصدر السابق، ص 111.

التجديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان

عبادة الله في ظل الاتصال بقوانين الطبيعة، ومثل السلوك الممتاز القوي المتمثل في الحديد، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾¹. ومثل سفر الحياة دون اصطدام مع الكواكب الأخرى في مداراتها، كما بينه الله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾². ومثل التضامن والتعاقد كما في أعمال النحل، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾³. ومثل الإفاضة على الناس دون أي تمييز كما تفعل أشعة الشمس. والأمثلة كثيرة.

فهذا الأسلوب للدعوة إلى التوحيد والطاعة الإلهية إنما هو أسلوب طبيعي يقوم على الاستدلال الكوني الذي هو إرهاب لا زدهار علم الإنسان وعمله. وإذا ما أخذنا هذا الأسلوب واستعملناه بطريق مؤثر، فستجد قلوبا واعية وآذانا صاغية للإنسان في المجتمع البشري. وهذا يعني أن القرآن يجعل الأخلاقيات الكونية نموذجا لأخلاق الإنسان وسلوكه، ويدعوه إلى ذلك حتى لا يتخذ الكون مقياسا له في المجالات المادية فقط، دون أن يتخذ الكون مقياسا أخلاقيا له كذلك⁴.

1 - سورة الحديد، آية 35.

2 - سورة يس، آية 40.

3 - سورة النحل، آية 69.

4 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 116.

رابعاً: اتخاذ الأسلوب السلس البسيط للكلام

وهذا الأسلوب البسيط هو الأسلوب الذي فيه سذاجة حسب الحقيقة، وسير الطبيعة، وهو يخلو من الزخرفة، والمتمثل فيما قاله عربي يعيش على فطرته، ونطق على سجيته، دون أن يكون قد ألم بشيء من منطق أرسطو: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل كله على الله اللطيف الخبير؟». فهذه الكلمات الصق بالمنهج التجريبي، القائم على الملاحظة، وأقرب إلى التأثير في النفس وأقدر على إقناع العقل من أي صيغة قياسية¹.

وذلك لأن الله تعالى خلق الإنسان على فطرة بسيطة، وإذا كان الكلام بسيطاً سهلاً خلوا من التعقيد، سيسترعي طبيعة الإنسان وينفذ إلى أعماقه، وسيطر على وجوده. بخلاف الكلام الصناعي المعقد الذي لا تتشربه طبيعة الإنسان، ولا تستطيع أن تفضمه هضمًا صحيحًا، أو لا يستسيغه كلية²، وهو الأسلوب الذي آل إليه علم الكلام القديم، حين أصبح يخاطب الناس بكلام معقد مجرد لا يقنع الخاصة، ولا تفهمه العامة من الناس. ولكن الأسلوب الأقوى في نظر مفكرنا، في عصرنا هو ذلك الأسلوب الذي يقدم الكلام بصورة واقعية وحقيقية، وهو الأسلوب العلمي، الذي يعدّ نتاج القوة العلمية، ولكنه في الحقيقة أسلوب قرآني أساسًا، إذ يعد القرآن الكريم أول كتاب قام على الموضوعية والحقيقة التاريخية.

وبناء على ذلك كان لزاماً علينا العودة إلى أسلوب القرآن والإعراض عن

1 - عبد الصبور شاهين، تقديمه لكتاب "الإسلام يتحدى"، ص 14.

2 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 116.

التحديد في علم التوحيد ----- د. صالح نعمان

الأسلوب الصناعي القائم على الصيغ المنطقية، والنشر المنظوم والشعر المنشور¹.

الخاتمة:

ومن هنا يبين لنا وحيد الدين خان أن منهج علم الكلام الجديد هو منهج القرآن الكريم في الاستدلال على العقائد الإسلامية. فكانت دعوته إلى تحديد علم الكلام وتجاوز صور الاستدلال القديمة في حقيقتها مجرد الدعوة إلى العودة إلى منهج القرآن الكريم أو "الكلاميات القرآنية" كما أسماه.

وعليه كان من الضروري اتباع المنهج الجديد في عرض العقيدة والاستدلال عليها وفهم قضاياها المترتبة والمتفرعة عنها، والتي تعدّ موضوع النقاش والجدل في هذا العصر، مثل "موضوع الإنسان وقيمه". لأن هذه القضايا إذا لم تكن محور النقاش في قاعات الدرس الجامعي وحلقات المساجد، وإذا لم يراع هذا المنهج القرآني الطبيعي الواقعي الذي يصوغ عقول الشباب اليوم، فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل في فراغ إيديولوجي، وتخرج للمجتمع نماذج خربة، واهنة أو مشوهة، أو بائسة من جدوى العقيدة في بناء المجتمع الجديد. ومعنى ذلك أيضا أن مساجدنا هياكل بلا روح.

1 - وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، ص 117.